فصاحة البداوة

نشرت على الجزء التاسع من المجلد الاول من مجلة الرابطة الادبية في ١٥ مايس سنة ١٩٣٤ م رداً على مقالة

نحى رواة العربية ببدويين اشتهر البدو واخبارهم، وملحهم ونوادرهم، وعضدوا منها الفصول الطوال في امهات كتب الادب. بعد ان سامروا بها الخلفاء، والحكموا بها حلقات العلم، وغروا مجالسه. ولقد بلغ استهواء الفصاحة البدوية للقوم: ان الخلفاء كانوا يرحلون باولادهم من مواطن الترف والرفاه في قصورهم، الى بيوت الشعر في البادية لتثقيف السنتهم، وتصحيح طباعهم، بل كان الاعرابي الوحي مفزع أئمة العلم يقضي بين سيبويه والكسائي ولا راد لقضائه، ويحكم على احدهما ولا مرد لحكمه. ولم ذلك يا ترى:

هذا ما نريد كشف النقاب عنه وعسانا لا نبعد عن الصواب: اختص الله تعالى العرب بذلاقة اللسان، وشدة العارضة، وقوة البداهة، وسرعة الخاطر، وشاء ان تكون لغتهم على سعتها لغة الشعر والبيان فهم يرشفون منها من سحر عذب، ويجتنون من رياض نضرة. واختص البدو منهم بخصائص من الفصاحة دائمة لصفاء اذهانهم، وصحة اجسامهم، وبقائهم على الفطرة النقية، فملكة وحي النفس التي يوقفك على هواجسها، ويسعفك خفقان القلب، ويعاونك بخائنة الاعين وما تخفي الصدور. لذلك فهم اوقع في القلوب، واخف على الاسماع، واخلب للالباب.

دع نفسك تمثل لك اعرابياً في هضاب نجد، هزّه الشوق الى هوى له باجراع الحجاز، فكوّر عمامته، ولات ازاره، ونكب قوسه، وجدّ في مسيره، فاذا الى: والتلاع نزفه، والوديان تهوي به، وقد لوّحت الشمس وجهه، وانبجست اسمالة، حتى بلغ الغاية، فقصد منها مقصد المحب منه حبيبه، يبثها شكواه، ويفضي اليها بجواه، وهي تتحفه من حديثها بما جعله يقول:

وحديثها كالقطر يسمعه ... اغنى سنيه فتابعت جدبا

فاصاخ يرجو ان يكون حيا ... ويقول من فرح هيا بنا

تجد فرق ما بينه كبدوي وبينه كمدم، اذ يقول في تقاربه بعد ان يلوك بلسانه امتاج الكلام، ويجهد نفسه، ويخبط ويجمع، وتتذكر ما كان قرأه من التكرير والتقسيم:

عيد وعيد وعيد قصرن مجتمعة ... فيا لها عيد يوم العيد والجمعة

قال رجل من منقر: تكلم خالد بن صفوان بكلام في صلح لم يسمع الناس كلاما قبله مثله وانا يا اعرابي في بيت ما في حجله هذه فاجابه بكلام وددت اني مت قبل ان اسمعه فلما أتى خالد ما نزل بي قال لي ويحك كيف نجاريهم وانا نحكيهم ام كيف نسابقهم وانا نجري بما سبق الينا من اعراقهم قلت له يا صفوان والله ما الوملك في الاولى وداع حمدك على الاخرى.

وقال الجاحظ: وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا اجالة فكرة ولا استعانة، وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام، والى حزيز يوم الخصام، او حيث ان يمتح على رأس بئر، او يحدو ببعير، او عند المقارعة والمناقلة، او عند صراع او في حرب، فما هو الا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب، والى العمود الذي اليه يقصد، فتأتيه المعاني ارسالا، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه احد من ولده، وكانوا اميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم اظهر واكثر، وهم عليه اقدر واقهر، وكل واحد في نفسه انطق، ومكانه من البيان ارفع، وخطباؤهم وجزء والكلام عليهم اسهل، وهو عليهم ايسر من ان يفتقروا الى تحفظ، او يحتاجوا الى تدارس، وليس هم كمن حفظ على غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا تحلب. ثم قال انك متى اخذت

بيد الشعبي فاذهلته بدرر الاشراب الخالص، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته على شاعر مفلق، او خطيب مصقع، علم ان الذي قلت هو الحق، واحيص الشاهد عياناً. انتهى

نستخلص مما تقدم ان ميزة البدوي في كلامه هو انه يرسله ارسالا من غير كد او كلفة، ولا يقول الا بما تشعر به نفسه، ولا يحمل على خلقة تباين هذه، لئلا تعصى عليه القول، وارتجت في وجهه ابوابه.

فما احوج ادبائنا — وهم لا يعدمون احد قسمين متمايزين قسم يعرب ولكن عن غير قلبه، ويفصح ولكن عنه سوى مراده، كأنه لغوانة الحاكي، تنقل كلام الاقدمين. وقسم حاول ان يماشي الزمان ويجري مع مقتضيات العصر، فعمل ولكن نظمه بلغة لا اعرف لها اسماً حتى الساعة — ما احوج هؤلاء الى محاكاة البدوي في النظم والنثر فانهم لو نظروا الى مظاهر المدنية الفخمة بالعين التي كان ينظر بها باديته الجرداء، ووعوا بأساء الحياة ونعماءها بالقلب الذي كان يعي به، بعد تهذيب اللفظ وتثقيف اللسان، لما شعرنا بهذا النقص الظاهر في ادبنا اليوم

حفلة مي

نشرت الجريدة الضباء ... قسم الاخبار المحلية ... السبت الاول

كتب (كاتب معروف) في هذه الجريدة الغراء فصليه وصف بهما الحفلة التي اقيمت لتكريم الآنسة مي وصفا اتى به على نقد الخطباء والشعراء باسلوب بارع يدل على بعد نظر وقوة ملاحظة وانصاف من معالجة الموضوع.

وكان مما اخذه عليّ امتع الله به امران: اولهما انني جعلت الادب في قصيدتي مملكة وبايعت الآنسة ميا عليها. والجمع اقراره بجعل مقام الآنسة لاعيد يده لتلك البيعة لانه من رعاة (الجمهورية) في الادب الخاضعة على كل ملك.

والامر الثاني استعمالي كلمة (عصبصب) اذ يرى ان الذوق العصري حكم عليها (بالاعدام) تغريقا في جوف القاموس ولقد رثى لصديقنا الاديب الفاضل السيد عبد الله البخاري حيث لم ينطلق بها لسانه الابعد المعالجة مع ما عرف به من الذلاقة.

فانا (استأنف) هذا الحكم وهذه ادلتي:

اما جعل الادب مملكة فذلك لان دولتهم العصرية هذه عهد بالتأسيس لم تثبت قواعدها ولم تتوطد اركانها ولم ترا بحاجة الى (الانتداب والوصاية) فالحكم الجمهوري والحالة هذه قد يؤدي بها الى الفوضى فالاضمحلال وما اعد اليوم الذي تتوجه به انفس ذخيرا الى الحكم الجمهوري عن جدارة.

واما كلمة (عصبصب) فلا استعمالي لها وجه انا احرزنه القناع لبي ابلغ الحجة البالغة.

لا يخفى ان للغة العربية اسرارا في الحروف والمفردات